المحاضرة السادسة: الصورة الشعرية في النص الشعري المعاصر

تمهيد:

تعد الصورة الشعرية واحدة من أهم العناصر الفنية التي يرتكز عليها الشعر في جميع عصور الأدب، إذ تمثل الأداة التي يستطيع الشاعر من خلالها نقل رؤيته ومشاعره وأفكاره إلى القارئ بشكل مباشر أو ضمني، محققًا تأثيرًا جماليًا وحسيًا في الوقت ذاته. وفي الشعر المعاصر، شهدت الصورة الشعرية تحولًا ملحوظًا، انعكس في تنوعها واختلاف مرجعياتها، سواء على مستوى المضمون أو على مستوى البنية الفنية، مقارنةً بما كان سائداً في الشعر الكلاسيكي.

فالشعر المعاصر لم يعد يكتفي بالتصوير التقليدي المرتبط بالوصف الحسي أو المجاز البلاغي المحض، بل امتد ليشمل التصوير الرمزي والوجودي والاجتماعي، مع ميل إلى اختزال الصورة وتكثيفها، لإحداث وقع فني أقوى وأعمق. كما اتسمت الصورة الشعرية في هذه المرحلة بالحرية في التشكيل واستخدام الرموز والتناص مع نصوص فنية وأدبية أخرى، وهو ما يعكس تفاعل الشاعر مع الواقع المعاصر وأزماته النفسية والاجتماعية والثقافية.

يمكن القول إن الصورة الشعرية في الشعر المعاصر تكشف عن علاقة وثيقة بين النص الشعري ووعيه الذاتي ووعيه بالعالم، إذ تصبح الصورة أداة للتعبير عن التجربة الفردية والجماعية، وعن التوتر بين الذات والوجود، وبين الحرية والقيود الاجتماعية. ومن ثم، فإن تحليل الصورة الشعرية في الشعر المعاصر لا يقتصر على البعد الجمالي فقط، بل يمتد ليشمل الأبعاد النفسية والفكرية والفلسفية للنص الشعري.

مفهوم الصورة الشعرية:

تعد الصورة الشعرية السمة الأسلوبية التي يتميز بها شاعر عن آخر، لأنها انعكاس حتمي لانفعالاته النفسية، وهي الوسيط الأوضح الذي يستكشف من خلاله تجربته الفنية ويتفهمها ليمنحها القيمة، وهي الفاصل بين الظاهر والباطن، والتعبير بوساطة الصورة يحمل الشعر إلى تجاوز الظاهر من المعاني ويعبر إلى الحقيقة الباطنية، وذلك من خلال تشابك اللغة الشعرية بعلاقات تنشئها بين المفردات من خلال وسائل بيانية متنوعة تولد الصورة الشعرية التي تكتسب

طاقتها الإيحائية من تجاوزها وجانبية تراكيبها، فالصورة الشعرية في القصيدة الحديثة تتبلور من خلال اللغة الشعرية التي يكتنزها الشاعر بوساطة التراكيب النحوية بالدرجة الأولى، والتعبير بالصور لا يمكن أن تنتجه التراكيب فحسب بل تتجاوزه إلى الصور البيانية وموسيقى النص.
وتختلف مفاهيم الصورة الشعرية وتتعدد بتعدد أزمنتها وظروفها ، والمفهوم الذي ساد قديما كان قائما على روابط التشابه بين التصوير والشعر، والخيال والرسم والعناية بالأشكال البلاغية للصورة كالتشبيه، والاستعارة، والكناية.
أما في العصر الحديث فقد تعددت مفاهيم الصورة الشعرية وتنوعت مزاياها، فقد عرفها على البطل بأنها: "تشكيل لغوي يكونه خيال الفنان من معطيات متعددة يقف العالم المحسوس في مقدمتها"، وعرفها عبد القادر الرباعي بأنها "هيئة تثيرها الكلمات الشعرية بالذهن شريطة أن تكون هذه الهيئة معبرة وموحية في آن"، وفي نظر عبد القادر القط هي: "الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة مستخدما طاقات اللغة وإمكانياتها في الدلالة، والتركيب، والإيقاع، والحقيقة والمجاز، والترادف والتضاد والمقابلة، والتجانس وغيرها من وسائل التعبد الفني، والألفاظ والعبارات هما مادة الشاعر الأولى التي يصوغ منها ذلك الشكل الفني أو يرسم بها الصورة الشعرية".
ومن التعريفات البسيطة للصورة الشعرية تعريف سي دي لويس بأنها "رسم قوامه الكلمات" فالشاعر يعمل خياله ويعتمد عليه في رسم صورة الشعرية، فهو يتميز بالقدرة على خلق أثر موحد من الكثرة، مثلما يتميز بالقدرة على تعديل سلسلة من الأفكار، بواسطة فكرة واحدة سائدة، أو انفعال واحد مسيطر في مرحلة واحدة متكاملة لا مراحل متعاقبة منفصلة، فالصورة ابنة للخيال الشعري الممتاز الذي يتألف عند الشعراء من قوى داخلية تفرق العناصر، وتنشر المواد تم تعيد ترتيبها، وتركيبها لتصبها في قالب خاص.

أشكال الصورة الشعرية في الشعر الحديث والمعاصرة:

اتخذت أساليب تشكيل الصورة الشعرية في الشعر العربي الحديث أشكالا متعددة لدى الشعراء، توزعت بين التقليد والتجديد، والحس، والترميز، معتمدين في رسم أبعادها ودلالاتها على الثوابت البلاغية من تشبيه، واستعارة، وكناية.

وأنواع المجازات الفنية على اختلافها ... وقد تأخذ الصورة الشعرية الشكل التقليدي في تركيبها أحيانا، وتتخطاه إلى الابتكار والإبداع أحيانا أخرى، وفي كلا الحالين تبقى وظيفتها قائمة من خلال كليتها أو جزئيتها، أو من خلال ما يحملها المتلقي من وظائف حال معايشته الشاعر في أحاسيسه ومشاعره.

وانبثقت عن ذلك أشكال وأنواع عديدة للصورة منها:

الصورة الجزئية:

هي تلك الصورة التي يمكن أن تستقل استقلالاً ذاتيا بكيانها، وتنفرد عن غيرها من الصور التي في سياقها . وتأتي هذه الصورة في الصور البيانية التي تتمثل في: التشبيه، والاستعارة، و الكناية. ونموذجها التشبيه مثلا في قصيدة (ذكريات ممحوة) تقول الشاعرة نازك الملائكة:

يا جسدا كالقبر، ما فيه روح

سميته قلبا فيا للغرور!

وأي قلب جامد بارد

نجد الشاعرة قد شبهت جسدها بالقبر، وهو تشبيه تام مستوف لكل أركانه، فالمشبه هنا هو جسد الشاعرة و المشبه به هو القبر، والأداة في الكاف، ووجه الشبه هو انعدام الحياة والروح فنازك ترى جسدها صندوقا فارغا يحوي رفات ورمم الذكريات كالقبر الذي يهضم الهيكل الآدمي دون روح.

- **الصورة الكلية:**

هي الصورة المؤلفة من توالي عدة صور مفردة في هيئة متناسقة تكون كلاً غير منفصل ، وهي التي لا يعتمد الشاعر في رسمها على صورة واحدة، بل يجنح إلى إنمائها ، إما بالإتيان بصورة جزئية مماثلة ، أو بصورة أخرى مقابلة ، وصولاً بذلك إلى إحساس موحد عن طريق وفرة الصور وتداخلها وتفاعلها . فتنصهر الصور في بعضها حتى تؤلف لوحة فنية متكاملة تعبر عن موقف أو حدث أثار كوامن الشاعر، وتتميز الصورة الكلية (باتساع رقعتها ، وتحول

مدلولها وفكرتها ، ووحدة مغزاها ، وترابط أجزائها ، وتكامل ألوانها ، وتعاون عناصرها في تشخيص الهيكل الكلي للفكرة .

فالصورة الكلية إذن: هي الفكرة العامة المجسدة في شكل قصيدة من حيث هي كل لا يتجزأ ولا ينقسم، هي فكرة القصيدة كلها.

ومن نماذجها قصيدة (حديقة الغروب) لغازي القصيبي:

أما تَعِبتَ من الأعداءِ.. مَا برحوا

يحاورونكَ بالكبريتِ والنارِ

ماذا أقولُ؟ وددتُ البحرَ قافيتي

والغيم محبرتي.. والأفقَ أشعاري

هذي حديقة عمري في الغروب.. كما

رأيتِ... مرعى خريفٍ جائعٍ ضارِ

الطيرُ هَاجَرَ.. والأغصانُ شاحبةٌ

والوردُ أطرقَ يبكي عهد آذارِ

الشاعر يصور معانيه المختلفة حول فكرة واحدة؛ هي رثاء ذاته ويلاحظ المتلقي ذلك الخيط المعنوي الذي يربط بين جزئية وأخرى، فليس هناك انقطاع في الرؤية الشعرية والحالة الشعورية للشاعر.

فجاءت الصورة لوحة فنية متكاملة في تصوير العمر الذي رسمه بملامح الغروب، وتتشكل الصورة الكلية من البحر والغيم والحديقة والخريف والطير المهاجر والأغصان الشاحبة، وهي لوحة حزن داخلي أسقطه الشاعر على الطبيعة؛ بحيث قامت الصور على الاستعارة

والتشخيص؛ فالعمر حديقة والغروب يرمز إلى الأفول والشيخوخة والضعف، والخريف فصل الذبول تحول إلى حيوان مفترس للعمر والجمال والقوة.
والأغصان الشاحبة استعارة لحالة الضعف واليأس، والطير المهاجر رمز الفقد والنهاية والغربة، والورد يخفض رأسه يبكي عهد الربيع (آذار)، وهي صورة تجمع بين الزمن والحياة والذاكرة.

- **الصورة الحسية:**

إن الوظيفة الأساسية الصورة هي تصوير العالم الداخلي للشاعر بكل ما يموج به من مشاعر وخواطر وهواجس وافكار، واذا كان الشاعر يستغل في الإيحاء بأبعاد هذا العالم الداخلى الشعوري معطيات العالم الخارجي المحسوس، فإنه لا ينبغى أن يقف عند هذه المعطيات الحسية مكتفيا بتسجيل التشابهات المحسوسة بينها، وإنما لابد أن يحول هذه المعطيات إلى أدوات للإيحاء على واقعه النفسي الخاص.
والصورة لا تكتسب فاعليتها من مجرد كونها صورة، وإنما بميزتها – كحادثة ذهنية ترتبط نوعيا بالإحساس، وتمثل الألوان والأشكال وسيلة الشاعر في إحداث التوترات المطلوبة التي تصاحب التجربة الشعورية، بوصفها مثيرات حسية، يتفاوت تأثيرها من شخص الى آخر، ومن هذا القبيل قول نزار قباني في تشبيه عيون الإسبانيات الواسعة السوداء باللؤلؤ الأسود في مقطع " من قصيدة (أوراق إسبانية):

شوارع غرناطة في الظهيرة
حقول من اللؤلؤ الأسود
فمن مقعدي
ارى وطني في العيون الكبيرة
أرى مئذنات دمشق مصورة...
فوق كل ضفيرة

يقف المتلقي في هذا المقطع عند التشابه الحسي الذي يسجله الشاعر في اللون بين أعين الإسبانيات الواسعة السوداء، والتي تمتلئ بها الشوارع وبين حقول اللؤلؤ الأسود. والحقيقة أن لا صلة بين طرفي التشبيه سوى اللون وهو صلة حسية مكنت الشاعر من رؤية وطنه.

كما شبه المآذن بالضفائر ولا وجه شبه بينهما سوى انحناءاتهما واستغل حاسة الرؤية للتعبير عن ذلك الشبه، وهي شهادة تاريخية على امتداد هوية العرب والمسلمين في الأندلس.
ومن هنا تتأكد أهمية المخيلة في إبداع الصورة الشعرية، حين – يعمد المبدع إلى تفتيت الأشياء وبعثرتها، ومن ثم هضمها وقتلها، ثم يأتي دور المخيلة لإعادة بنائها وتنظيمها.

-الصورة التشكيلية:

تأتي هذه الصورة في هيئة لوحة التشكيلية منتقاة العناصر وإذا كانت الصورة السينمائية (المونتاج) نابضة بالحركة والصوت، فإن الصورة التشكيلية تعتمد على المرئيات والألوان وهي تمكن الشاعر من اختزال لقطاته وتكثيفها بما يخدم التجربة ويعبر عنه.
ونلمس هذا النوع من الصورة الشعرية في قصيدة " أجلس كي أنتظرك " لمحمد إبراهيم أبو سنة حين يقول:

أدخل وحدي نصف القمر المظلم
تبلغني في منفاي رسالة
يبعثها الصيف القادم
يتساقط منها ثلج أسود

تتضافر في الصورة الشعرية المجموعة من المرئيات والألوان، يعتبر الثلج هو القاسم المشترك بينها، حيث نجد الحرارة (الصيف) تمتزج بالبرودة (الثلج) من جهة، كما تجد البياض (الثلج) يحتفظ بالسواد من جهة ثانية، وهذا المزج يوحي بالحالة النفسية للشاعر. والتي يمتزج فيها الضياء بالظلمة أو يتحول فيها الضياء إلى ظلمة كما يختلط الإحساس بالقتامة.
وفوق ذلك يقوم الشاعر بمزج الأشياء المتناقضة، فهو يمزج بين الضياء (القمر) والظلام في البيت الأول واصفا القمر بأنه مظلم، ويمزج السواد بالبياض ممثلا في الثلج في البيت الأخير، وتبلغ شدة هذا المزج درجتها عندما يقدم هذا الثلج الأسود للمتلقي على أنه يتساقط من رسالة يبعثها الصيف القادم بما يحمله من دفء وحرارة.
وتدل تلك العلاقات على الحالة النفسية للشاعر الذي يحس بالوحشة ويدخل إلى عوالم شديدة الغرابة يحس فيها بالوحدة، وذلك من خلال الاستعارات، وهذا الإطار البلاغي ليس إطارا ماديا للصورة الشعرية فقط، بل هو رمز للحالة النفسية والفكرية للشاعر.

- **الصورة المشهدية:**

نوع من أنواع الصورة الفنية، وتأتي في الشعر ذات أبعاد سردية داخل البناء الشعري، لها العناصر نفسها: الزمان والمكان والشخصيات، والانفعال والحركة والحدث، والصورة المشهدية أنواع منها المشهدية الحوارية التي يبنى فيها المشهد على حوار سردي، ومنها المشهدية الوصفية التي يرسم فيها المشهد متحركا، والصورة المشهدية لها ارتباط بالفنون البصرية كالسينما والمسرح.

ومن نماذجها قصيدة (شهرزاد والليلة الثانية بعد الألف) لعبد الحليم مخالفة، وهي قصيدة مزج فيها الشاعر بين الاسطورة والرؤيا الشعرية والتقنيات السردية في بوتقة واحدة، وقدمها في بنية حكائية قائمة على التصوير المشهدي ببراعة في استخدام اللغة على مستوى اللغة والدلالة، يقول فيها:

البدر في كبد السماء قد استقرْ. .
وعلى أريكته تمدد شهريار. .
أعياهُ طول الانتظار. .
والنوم أرخى نحوهُ
كفًا وراحَ
يداعب الأجفان قهرا. .
فيردُّها السلطان يأبى
أن يلبي مكرهًا، للنوم أمرا. .
والغادة الحسناء تمثالٌ
يُطوِّقه السكونْ
وعلى امتداد الصمت
تمتد الهواجس والظنون

وقد استثمر الشاعر في هذه القصيدة بنية الحكاية الشعبية ذات البعد الأسطوري بأحداثها وشخصياتها، معبرا بها عن الجزائر في زمن المحنة والصراع بين السلطة الكلمة والسلاح.